ضفة ثالثة
منبر ثقافي عربي

فريد الزاهي

أحمد الشرقاوي، روحانية العلامة وذاكرة الأثر

28 يناير 2017 تشكيل

بالرغم من وفاته المبكرة في سن الثالثة والثلاثين، كانت مسيرته التشكيلية فتحًا كبيرًا في مجال أسَّس فيه لتجربة العلامة في الفن العربي الحديث. فلقد كان أحمد الشرقاوي (1944-1967) في شبابه خطاطاً ومصمم يافطات وإعلانات في الدار البيضاء قبل أن يتابع دراساته في فرنسا ويلتحق بمدرسة باريس الفنية ويصاحب أعمدتها الكبار. لم يترك الشرقاوي إرثًا تشكيليًا كبيرًا، غير أن مغامرته التشكيلية قادته منذ البداية نحو تجريد يستوحي الوشم والعلامات (أي الجسد والهوية المحلية)، ليجعل منه مدخلاً خصوصيًا لهوية تشكيلية تعددية، في وقت كان فيه الخط في المشرق، في الفترة نفسها، ينحت هوية ثقافية في التشكيل مبنية على العروبة وجذورها الإسلامية.

كان عبد الكبير الخطيبي قد تعرف عليه في مقامه الدراسي في فرنسا في بداية الستينيات وكتب عنه بالكثير من المديح والتأويل الاختلافي: "ليست الهندسة الرمزية والكتابة التصويرية التي تعتمدها أعماله هنا لكي تبهرنا بل لكي

تلطف من انبهارنا. من ثم يأتي ذلك النسيج وتلك الرؤية الملموسة التي تنبثق بخفة ورهافة بالغتين. ولنا أن نتخيل ما يلي: حين نجد أنفسنا في العتمة المدلهمَّة لغرفة ما، يكفي استلاب هذه اللوحة من الليل كي نستعيد الضوء، فالفن يخرج الإنسان من كارثته الأصلية، ويضعه مجددًا في حركة فعل الحياة. يعيده للعبة العلامات والأشكال المتناسجة مع حركة الجسد وحكاية حياته. الأمر يتعلق في أعمال الشرقاوي بالتحولات النورانية".

تنبني تجربة الشرقاوي على ما يسميه "وشم أمي"، أي على استحضار تلك العلامات التي تشم بها النساء أجسادهن لدوافع سحرية أو تجميلية. هكذا يستثمر الفنان الأشكال مجردًا إياها من سياقها كما ليحول اللوحة إلى بشرة، وليجعل من الوشم علامة غير متحددة. فتكبير تلك الرقوش يمنحها طابعًا مغايرًا بحيث لا نكاد أحيانا نتعرف فيها على أصولها. ثم إن استخدام الفنان لثوب القنب يمنح الخطوط رهافة تكاد هندسيتها التخطيطية تتراقص فيها. كان الهم الأكبر للشرقاوي هو أن ينحت تجربة تشكيلية تجريدية بشكل مزدوج: من حيث إنها تبني جذورها في تربة التجريدية الإسلامية، من غير أن تنصاع لطابعها التشخيصي الشذري المتمثل في التواريق والتشابيك والخط، ومن حيث إنها تقترب من ذاكرة الجسد والثقافة الأمازيغية العربية اليهودية في ما بلورته من تعابير تخطيطية على الجسد.

المدهش في مقاربة الشرقاوي لهذه العلامات والرموز هو أنها تنتزعها من حرفيتها العلامية ومن سياقها الرمزي، كي تحررها من كل ما يمكن أن يحيل إلى طابعها السحري أو التعلمي أو الاجتماعي. فالفنان لا يهتم في العلامة الرمزية للوشم بما يمكن أن تعنيه لنا أو للشخص الذي تنطبع على جسده، وخاصة النساء، بقدر ما تعنيه له تلك الأشكال كمركب بصري معتمل في الجسد، ويشكل جزءًا من مظهره الشخصي والاجتماعي. فلقد استطاع هذا الفنان، في ظرف وجيز من حياته أن يبلور تصورًا تشكيليًا خاليًا من أي مرجعية اجتماعية. وكأنه بذلك استطاع أن يستبطن هذه الآثار التي أثارته في طفولته، كي يحولها إلى أشكال فنية غنية بالإحالات الجمالية، تتراقص في مخيلته كالأثر الدافئ.

إذا كان الوشم رسمًا على الجسد بالإبر و"الحرقوص"، ذلك المسحوق الشبيه بالكحل، الذي يترك على البشرة لونًا أخضر يحيل على الخصوبة، فإن الفنان بلور لنفسه نظامًا من التخطيطات التي تبني توازنها على اللون. هكذا تشكل لديه الأزرق والأخضر والخبازي، في حركية مشدودة أحيانًا إلى الخطوط المنحنية، التي تسعى إلى انفتاح العلامات المكبَّرة بشكل يكاد يكون ذا إيقاع موسيقي. كما أن التكرار الذي يطبع هذه العلامات واعتماد دوائر أشبه بالعين، تنم، خاصة في أواخر تجربته الفنية القصيرة والغنية، عن منحى صوفي روحاني يستحضر جذوره الاجتماعية. فهو ينتمي إلى الزاوية الشرقاوية المعروف عن مؤسسها سيدي محمد الشرقي علمه ونباهته وزهده، ومنها ورث عشقه للغة العربية وخطها، بالرغم من أنه فضل الاشتغال على موروث أكثر رحابة واجتماعية وأقل قدسية.

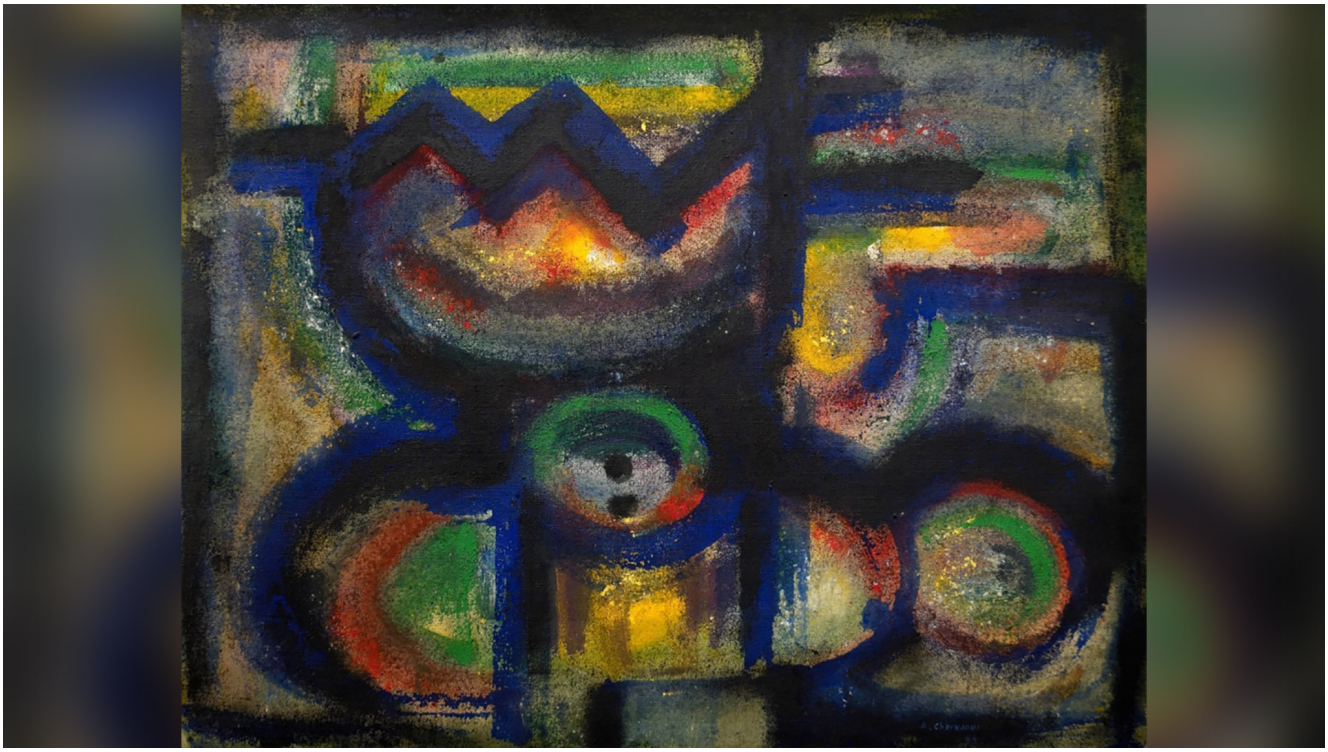

اختطف القدر أحمد الشرقاوي في عز شبابه وعطائه الفني، وهو يبلور تجربة ابتدأت بالاشتغال على المواد الخشنة وعلى علامات البساط الشعبي والوشم. وفي نهاية حياته صارت أعماله أكثر انفتاحًا وهوائية وأقل كثافة، منطبعة بنفحة صوفية واضحة. بل إن أعماله الأخيرة سعت إلى استحضار مكونات القناع الأفريقي، إيمانًا منه بأن تحولات استكشافاته الجريئة يلزم أن توسع من أفقها باتجاه يمكنها من الإمساك بالبعد الأفريقي للمغرب. واليوم تعد أعماله القليلة ذروة سوق الفن المغربية والعربية، لأنها خطت لنفسها أسلوبًا صعبًا على التقليد والتزييف. بل إن امتدادات الشرقاوي في الفن المغربي قليلة ولا تصل إلى المستوى الذي بلوره. وكأننا بتجربة العلامة هذه تجربة وحيدة ويتيمة، استهلكت بشكل واضح مكوناتها في ما يشبه التملّك الانفرادي.

ونحن نرغب اليوم في إعادة قراءة تجربة الشرقاوي التشكيلية الرائدة، نرى أنها كانت من القوة بحيث انغلقت على ممكناتها وبلورتها في ما يشبه التجربة الفريدة غير القابلة للامتداد في كليتها. فهي أفرزت تفرعات كانت جزئية نلفيها لدى فريد بلكاهية في استعماله للرموز ولدى بعض الفنانين الآخرين بشكل شذري. أما أولئك الذي حاولوا تبني تجربته

فقد أخفقوا في بناء فن "أمازيغي" أو ذي منزع يرغب لنفسه في أن يكون كذلك. فجاءت أعمالهم في غير مستوى الإبداع التشكيلي أو التعبير عن فن محلي له جذوره التاريخية والثقافية. إنها تجربة تستمد فرادتها التعبيرية من قوتها البركانية. ولو أتيح لأحمد الشرقاوي أن يعيش أكثر، لكان قدم لنا امتدادًا أكيدًا لفورة ما اختزنته لوحاته، في انزياحاتها الممكنة كما في استكشافاتها الجريئة، التي تتغيا بناء نمط تعبيري ينطلق من الموروث البصري كيف يعانق رحابة العالمية. بيد أن المنية لم تمهله كي يثبت البداهة الجمالية الأكيدة لمشروع تعبيري بصري، سيظل علامة مائزة في تاريخ التشكيل العربي والمغاربي، سوف تستوحيه بشكل واضح مجموعة "أوشام" الجزائرية، وسوف يظل حيًا وبأشكال عديدة في تجارب وسماوات الفن العربي المعاصر.